

الباب الأول

تكوين الحوفي الثقافي و تراثه العلمي

١. الفصل الأول : الحالة السياسية والدينية والثقافية في عصره :-
 ١. الحالة السياسية .
 ٢. الحالة الدينية.
 ٣. الحالة الثقافية.
٢. الفصل الثاني : حياته وتكوينه الثقافي :-
 ١. حياته .
 ٢. ثقافته .
 ٣. شيوخه وتلاميذه .
٣. الفصل الثالث : تراثه العلمي ومصادره :-
 ١. مصنفاته .
 ٢. مصادره .

الفصل الأول

الحالة السياسية و الرينية و الثقافية في عصره

يقتضينا منهج البحث في حياة عالم من علماء التفسير للوقوف على منهجه، أن نلقي بعض الضوء على الجوانب المؤثرة في شخصيته وفي نتاجه العلمي ، حيث إن الإنسان ابن بيئته وعصره، ولا تفهم الشخصية العلمية بمعزل عن مؤثرات العصر وانطباعاته. من هنا كان من الضروري الكشف عن الملامح السياسية والدينية والثقافية لعصره للوقوف على مكوناته الثقافية ثم على منهجه في التفسير.

أولاً : (الحالة السياسية :

عاش الحوفي منذ بداية الفتح الفاطمي لمصر سنة ٣٨٥هـ حتى سنة ٤٣٠هـ، ومن ثم عاصر خمسة من الخلفاء الفاطميين هم : (المعز توفى ٣٦٥هـ) ، (العزیز ٣٦٥-٣٨٦هـ) (الحاكم ٣٨٦-٤١١هـ) ، (الظاهر ٤١١-٤٢٧هـ) ، (المستنصر ٤٢٧-٤٨٧هـ).

وقبل أن نلقي الضوء على الحالة السياسية في مصر في عصر الفاطميين ، نحاول أن نلقي الضوء على الحالة السياسية منذ دخول الإسلام مصر حتى عصر الفاطميين ، وذلك للتعرف على آثارها في بيئة الحوفي وفي الحركة العلمية المعاصرة له فتحولها وحولها إلى دولة إسلامية سنة ٢٠هـ وذلك على يد عمرو بن العاص الذي عدت فترة ولايته على تلك البلاد فترة تطور في أحوالها الاقتصادية والسياسية والدينية كما عدت فترة انتعاش وتقدم^(١) ومنذ ذلك الوقت تحولت مصر إلى ولاية عربية تابعة للخلافة الإسلامية، ثم تطورت الحياة السياسية في مصر فأصبحت تحكم من دمشق أيام الأمويين ومن بغداد في

١. د. علي إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ المصري الوسيط ص ١٨٠.

عهد الخلفاء العباسيين، وفي تلك الفترة أصبحت البلاد في حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار وبسبب ذلك أنه والي مصر منذ وفاة عمرو بن العاص " سنة ٤٣هـ إلى قيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤هـ " تسعة وتسعون واليا ولقد أدى قصر عهد الولاة ، وجشعهم وتزعزع مراكزهم إلى عدم استفادة البلاد من ذلك العهد، كما حال دون ما كانت ترجوه البلاد من تقدم ورقي هذا بالإضافة إلى ما قام به المعتصم من إسقاط العرب من ديوان إحلال الأتراك محلهم وبذلك عد أول خليفة أدخل الأتراك الديوان واستكثر منهم حتى كان له من مماليك الترك عشرون ألفاً^(١) ، أسند إليهم المناصب العالية وقلدهم الولايات الكبيرة وقد ظلت مصر تحت حكم ولاة من الأتراك حتى سنة ٢٥٤هـ ، حيث ولي أمور مصر من قبل هؤلاء الولاة الأتراك أحمد بن طولون الذي أسس في مصر دولة جديدة عرفت باسم الدولة الطولونية، ولقد كان من أهم أعماله أن انتعشت البلاد في عهده واستردت قوتها وعظمتها وأصبحت مصر إمبراطورية شاسعة تمتد من العراق إلى برقة بما في ذلك الشام وفلسطين^(٢) .

وعلي ذلك "البثت مصر منذ الفتح الإسلامي زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية تتوارثها الخلافة أينما حلت، الخلافة العامة فالخلافة الأموية ،فالخلافة العباسية .غير أن مصر كانت منذ الفتح تنبواً بين الولايات الخلافية مركزاً ممتازاً ، فقد أخذت قاعدة لفتح أفريقية فالأندلس وكان ولاتها الأوائل ولاة لأفريقية وكانت أيضاً بموقعها الجغرافي وأهديتها العمرانية مطمح الزعماء المتغلبين يرز فيها ملاذاً منيعاً للحركات الاستقلالية^(٣) .

١- ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/٢٦٦

٢- د: علي إبراهيم حسن : السابق ص ٢٠

٣- محمد عبد الله عنان :الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ص١٧.

ظلت مصريين هذه المتغيرات السياسية طوال هذه الفترة ، وإن يكن الشعب المصري يعطف دائماً على أولئك الحكام الأجانب خصوصاً وأن معظمهم من الفرس أو الترك المستعربين فكان الزعماء المحليون ينزعون دائماً إلى منافستهم ومنازاتهم، وكان الجند كثير التمرد والثورة يتبرم من أطماع أولئك الزعماء وجشعهم في استخلاص أرنقه^(١)، فكان تعاقب الولاة ومنافستهم في تلك الفترة ، وثورات الجند المتكررة واضطراب الشؤون العامة ، وفقدان الأمن ، وغلبة الفوضى تزيد مصر على ضعفها ضعفاً وتدفعها إلى التطلع إلى مصير أفضل من هذا المصير^(٢) حتى كان عهد كافور الذي كان عهداً أسوداً على البلاد فقد قاست فيه البلاد البؤس والشقاء بدرجة لم ترها من قبل وكان أشد هذا المحن انخفاض النيل الذي بدأ سنة ٣٥١هـ ، وما تلاه من قحط ووباء، وقد ظل هذا الانخفاض تسع سنين حتى عام ٣٦٠هـ . يحدثنا المقرئ^(٣)

بما كان متوقعا وهو أن القحط أعقبه الوباء، ففشا الموت بسببه : حتى عجز الناس عن تكفين الموتى وعن دفنهم . فاضطروا إلقاء جثثهم في النيل ، وكان اثر ذلك أشد الغلاء وندر وجود القمح وأغار الأشرار على المزرع والحقول ، وعم السلب والنهب وبما زُده هذا البلاء الذي أنصب على البلاد عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة ٣٥٢هـ ونهبوا حجاج مصر في طريقهم إلى مكة سنة ٣٥٥هـ ، وعدم قدرته على الدفاع عن البلاد حين غزها ملك النوبة . حتى نهب البلاد الجنوبية فوصل إلى أخميم وعاد إلى بلاده محملاً بالأسلاب والغنائم ، يضاف إلى ما تقدم ما كان من عجز كافور أيضاً عن

١ - محمد عبد الله عنان : نفسه ص ١٩ .

٢ - محمد عبد الله عنان : نفسه ص ٢٠ .

٣ - المقرئ : الخطط ٣٣٠/١ ، د . حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ص ٩٥ .

دفع رواتب حرسه وأرزقهم، فثاروا عليه^(١) أضف إلى ذلك كله ما كانت تعانيه مصر يومئذ من ضرب الانحلال والفساد الاجتماعي الشامل^(٢).

انتَهز الخليفة الفاطمي المعز لدين الله تلك الفرصة وأرسل حملته المشهورة لفتح مصر بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ^(٣).

ومن هذا التاريخ أصبحت هذه البلاد مقراً لحكم الفاطميين التي عدت من الناحية السياسية فاتحة عصر جديد في تاريخ وادي النيل وأصبح لمصر فيها لأول مرة منذ أيام الفراعنة سيادة قومية تامة ممثلة في حكومة عزيزة الجانب شديدة الحيوية تقوم على أساس الدين^(٤)

و نافست القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية الشيعية الفتية بغداد حاضرة الدولة العباسية السنية المتداعية^(٥)

ولقد كان جوهر أول من قام على تنفيذ السياسة الفاطمية التي كانت ترمي إلى اتخاذ مصر جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى المشرق لتأسيس خلافة فاطمية شاسعة الأرجاء ولم يقتصر فضل جوهر على تلك الفتوح الواسعة في المغرب ومصر والشام، بل إنه أسس مدينة القاهرة رابعة حواضر مصر الإسلامية^(٦)

لقد كانت الدولة الفاطمية تعتمد منذ نشأتها حتى عهد المعز لدين الله على تأييد القبائل المغربية ذات البأس والعصبية، وتصطفي زعماءها لمناصب الثقة والقيادة والنفوذ مع استثناءات قليلة في اصطفاء الموالى كما اختار العزيز عدد منهم لمناصب الثقة

١ - حسن إبراهيم حسن: نفسه ص ٩٦.

٢ - محمد عبد الله عنان: السابق ص ٢٣.

٣ - د. علي إبراهيم حسن: نفسه ص ٢٥.

٤ - د. مصطفى الجويني: ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ٤٨.

٥ - د. علي إبراهيم حسن: السابق ٢٥.

٦ - د. علي إبراهيم حسن: نفسه ٢٥.

والقيادة فولى بنجوتكين التركي القيادة ولاية دمشق، ووليا الصقلي حكم عكا وبشارة الإخشيدي حكم طبرية : وربحا حكم غزة ، وولي برجوان إمارة القصر ، فكان لهم أعظم شأن فيما بعد ، وأذكي هذا الاصطفاء للترك عوامل الحسد والنضال بين الترك والمغاربة^(١) كما مال العزيز أيضاً إلى اصطناع اليهود والنصارى وكان الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس أول وزراء الدولة الفاطمية بمصر وأعظمهم شأنًا ، وكان يهوديا واسلم في عهد كافور الإخشيدي واتصل بالمعز قبل افتتاح مصر ، وعاونه في تدبير الفتح ، وتوزر ابن كلس للمعز ثم لابنه العزيز بعد زهاء اثني عشرة عاما ، وكان أعظم رجال الدولة الفاطمية وأبعدهم نفوذا وتولى الوزارة في عهد العزيز عيسى بن نسطورس النصراني ، ومنشأ اليهودي، وكان طبيب العزيز بالله وطبيب ولده الحاكم من بعده نصراني يدعى أبو الفتح منصور بن مقشّر المصري وكانت له منزلة سامية في الدولة^(٢) .

وبلغ نفوذ النصارى واليهود ذريته في عصر العزيز ، واستولى الوزراء والذميون على معظم أعمال الدولة ، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ ، وقد كان لهذا التسامح اثر سيئ في المجتمع المصري ، ومن ثم نستطيع أن نقول أن الحالة السياسية التي عاصرها الحوفي في الدولة الفاطمية قد حفلت بالمتناقضات الأمر الذي أدى إلى انكباب علماء الإسلام خاصة أهل السنة ومنهم الحوفي على الدرس والتأليف.

ثانيا : (الحالة الدينية في العصر الفاطمي) :

جاء الفاطميون مصر يدعون إلى عقيدة تختلف عما كان عليه أكثر المسلمين ، فقد كان السواد الأعظم من مسلمي مصر ينقسمون بين مذهب مالك ومذهب الشافعي ، وتقليل منهم من كان على مذهب أبي حنيفة ، ومهما كانت الفرق بين هذه المذاهب فكلها من

١- راجع النجوم الزاهرة ١١٧/٤ وخطط المقرئ ١٧/٣ .

٢ - راجع محمد عبد الله عنان: السابق ٢٣ .

مذاهب أهل السنة والجماعة التي تخالف عقائد الفرق الشيعية وتباينها ، والفاطميون فرقة من فرق الشيعة عرفت بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق (١) لقد جعل الفاطميون ولاية الإمام أحد أركان الدين ودعائمه ، فالإمام عندهم مفسر للدين وأسراره ، وإذ جعلوا محمدا صاحب تنزيل القرآن وجعلوا عليا صاحب تأويله أي أن القرآن الكريم بلفظه ومعناه الظاهر للناس ، أما أسرار التأويل الباطن فقد أنزنت على محمد ولكنه خص بها علي وأبنائه من بعده دون غيرهم من البشر وان علي وأبنائه من الأئمة هم الذين يدلون الناس على هذه الأسرار ، وبنو عقيدتهم في التأويل الباطن فكربا على أن المخلوقات قسمان : قسم ظاهر للعيان وقسم باطن خفي ، وجعلوا الظاهر يدل على الباطن ، وسموا الباطن ممثلوا والظاهر مثالا . ولذلك يمكن أن يطلق على نظرية التأويل عندهم ، نظرية المثل والممثل (٢)

وبناء على تلك النظرية يجب أن يكون في العالم الأرضي عالم جسماني ظاهر يماثل العالم الروحاني الباطن وكل خصائص العقل الأول السابق جُعِلت للإمام .

ولقد أول الفاطميون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وفق مذهبهم تأييدا لما ذهبوا إليه من وجوب ولاية الوصي علي بن أبي طالب. ففي التأويل الباطن أن "وجه الله" و "يد الله" و "جنب الله" هم الأئمة ، والشمس محمد والقمر علي والأئمة والأهله هم الأئمة (٣) بل ذهب الأمر أكثر من ذلك في عصر الحاكم بأمر الله ، فقد انتشحت الإمامة الفاطمية بنوع من القدسية الرهيبة وتحولت الدعوة المذهبية إلى نوع من الفلسفة الحرة

١ - يقول الدكتور محمد كامل حسين عن هذه الفرقة : هذه الفرقة التي قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر فابنه محمد بن إسماعيل فائمة " دور الستر " وهم عبد الله بن محمد ، فاحمد بن عبد الله فالحسين بن أحمد فائمة " دور الظهور ، راجع الكتاب " في أدب مصر الفاطمية ص ٢١ " .

٢ - د الجويني : ملامح الشخصية ص ٥٣ ، د محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص ٧ .

٣- دكتور محمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية ص ٢٩ .

أو بعبارة أخرى إلى معتزك من الإلحاد المغرق^(١)، فقد ظهر في أوائل سنة ٤٠٨هـ بمدينة القاهرة رجل يدعي حمزة بن علي بن أحمد الزوزني، ويعرف باللباد، دعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله، وانتظم بين الدعاة الذين كانت تغض بهم العاصمة الفاطمية يومئذ^(٢) كما ظهر حسن بن حيدر الفرغاني المسمي بالأخرم ودعا مثل ما دعا إليه حمزة من التناسخ والحلول وألوهية الحاكم، وقد ذاعت دعوته بسرعة في جماعة من المغامرين والمرتزة فاستدعاه الحاكم وخلع عليه وأركبه فرس مطهما: وسيرة في موكبه، وأولاه عطفه ورعايته^(٣).

كما ظهر محمد بن إسماعيل الدرزي، ويعرف "بأنوشتكين البخاري" وهو من أصل تركي فيما يرجع أقوي رسل حمزة وأشدهم عزمًا وجرأة في الدعوة إلى التناسخ والحلول، ويزعم أن روح آدم قد انتقلت إلى علي بن أبي طالب، ثم انتقلت روح علي إلى الحاكم صفوة سلالته، لدرجة أن بعض الجهلاء والمرتزة وبعض الذميين المنافقين كما إذا لقوا الحاكم في ركبه قالوا: السلام عليك يا أحد، يا محيي يا مميت، ولقد كان موقف الحاكم بأمر الله من هذه الحركة الإلحادية المدهشة موقف تأييد ورعاية، وكان يشد أزهم ويمدهم بالمال والنصح ويسهر على حمايتهم من الكافرين، كما كان يشرف على توجيه الدعوة ويشترك في تنظيمها وتغذيتها بطريقة فعلية^(٤)

تلك الدعوة التي كانت ترمي إلى غزو الأذهان المؤمنة والعمل على هدم عقيدة أهل السنة، وهي غاية تبدو واضحة في سياق الدعوة السرية ولا سيما الدعوات السرية ولا سيما الدعوات الأخيرة^(٥)

١- محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله ص ١١١.

٢- محمد عبد الله عنان: نفسه ص ١١٣.

٣- محمد عبد الله عنان: نفسه ص ١١٥.

٤- محمد عبد الله عنان: نفسه ص ١١٦.

٥- راجع عبد القاهر البغدادي حيث يقول: دخلت هذه الدعوة مصر سنة ٣٦٣ واستقرت في القاهرة، أما أهل القاهرة فهم ثابتون السنة إلي يومنا " راجع: الفرق بين الفرق ص ١٢٥.

التي يقول عنها عبد القاهر البغدادي : الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهريّة زنادقة يقولون بقدّم العالم وينكرون الرسل والشرائع ، ويرفضون المعجزات وينكرون الوحي ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة ، فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلبا للزعامة بدعوة النبوة والإمامة ويقول : "إن الجنة هي نعيم الدنيا ، وإن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد وإن أهل الشرائع يعبدون إلهها لا يعرفونه ، ولا يحصلون عليه إلا على اسم بلا جسم (١) .

تلك هي الصبغة التي غلبت على الفكر الفاطمي ، الصبغة الفلسفية التي تدافع عن مذهبهم ، لكن قامت بجانب ذلك نهضة في ألوان العلوم الإسلامية الأخرى ، ومن مظاهر هذا النهضة ما نجد من إكثار الفاطميين من بناء المساجد وإنشاء دار العلم التي بناها الحاكم سنة ٣٩٥ وجعلها مركزاً للدولة الفاطمية (٢) لقد كانت سياسة الفاطميين الدينية موجهة إلى غاية واحدة ، هي العمل على حمل الناس على اعتناق مذهبهم وجعل المذهب الفاطمي سائداً في كافة أنحاء الديار المصرية وغيرها من البلاد التي كانت تحت حكمها ولعل ذلك يبدو أكثر وضوحاً من علاقة الفاطميين بطوائف الشعب .

أ- علاقة الفاطميين بالنصارى واليهود

كان العزيز يعطف على النصارى واليهود كما كان أبوه قبله ، ولكن العزيز كان أكثر عطفاً على النصارى لما كان بينه وبينهم من صلة النسب ، فإنه تزوج من نصرانية وعمل على تعيين أخويها بطريرقين أحدهما في الإسكندرية والأخر في بيت المقدس ، ورفع العزيز عيسى بن نسطورس إلى كرسي الوزارة ، كما عين منشأ اليهودي واليا على الشام فاضهر ابن نسطورس ومنشأ محاباة جلية لبني ملتهم فعينوهم في مناصب الدولة بعد أن أقصوا المسلمين عنها .

١- عبد القاهر بن طاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٧٧
٢- د . الجويني : السابق ص ٥٣ ، ٥٤ ، وراجع المقرئ ص ٢٩٤/٢

مما أدى إلى احتجاج المسلمين على تلك المحاباة التي أظهرها الخليفة لغير المسلمين (١)

فلما تولى الحاكم بدأت سياسته المتقلبة إنء النصارى واليهود فتارة يقسو عليهم وتارة أخرى يتسامح معهم .

وبالجملة ، فقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوي على العطف والرعاية وما كان الاضطهاد الذي به الحكام إنءهم لإحقة من سلسلة حلقات الظلم الذي حاق بالمصريين عامة . والحق أن أبناء هاتين الطائفتين قد عوملوا غير مرة معاملة تتجلى فيها المحاباة لهم (٢)

ب-علاقة الفاطميين بأهل السنة :

لم تقتصر سياسة الفاطميين الدينية على اضطهاد النصارى واليهود أو التقرب إليهم ، بل تعدتها إلى النواحي الإسلامية ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت تحكم مصر شعبا لا يتبعها من الوجهة المذهبية إذ أن الهدف الأول للفاطميين هو بث الدعوة الفاطمية في قوة وجرأة ، وكن في نوع من التناقض ، ففي سنة ٣٩٥هـ أمر الحاكم بسب السلف (أبو بكر وعمر وعثمان وعائشة وغيرهم من الصحابة) ، وأمر بكتب ذلك على أبواب المساجد والمقابر والدور ولون بالأصباغ والذهب ، وأرغم الناس على المجاهرة به ونقشه على سائر الأمكنة (٣) ، إذ عدوهم أعداء لعلي ونوقشت فضائل على وأولاده من بعده على السكة وعلى جدران المساجد (٤)

١ - د.حسن إبراهيم حسن: السابق ص ٢٠٢ .

٢ - حسن إبراهيم حسن: نفسه ص ٢١٥ ، ص ٢١٦ .

٣ - محمد عبد الله عنان: السابق ٧٦ .

٤ - حسن إبراهيم حسن: السابق ٢١٠ و السكة صوابها الصكة يرجع للسان العرب .

ولقد كان سب السلف ظاهرة شيعية عملية ، لم يلبث أن ضج الشعب لهذا الاجترأ المثير ، خاصة وأنهم ألزموا جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمي ورغبة في الحصول على مناصب الدولة دفع بفريق من المسلمين للتحويل للمذهب الشيعي ، كما دفع بعض الذميين إلى اعتناق الإسلام واتخاذ التشيع مذهباً لهم كما كان لزم ما على الموظفين السنيين الذين ظل في أيديهم بعض المناصب الصغيرة أن يسيروا وفق أحكام مذهب الإسماعيلية (١) .

ومما زاد الأمر سوءاً اشتداد الفاطميين على أهل السنة ومنعهم من إقامة مراسمهم ففي سنة ٣٨١هـ ضُرب رجل من أهل مصر وطيف به في المدينة لأنهم وجدوا عنده كتاب "الموطأ" لمالك بن أنس (٢) .

وفي سنة ٣٩٨هـ صدر مرسوم يقرر بعض الأحكام ويفسرها على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف وشغب على فهم الأحكام وتطبيقها (٣) .
إليك نصه بعد الديباجة :

ط " أما بعد : فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين : " إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... " (سورة البقرة : من الآية ٢٥٦) مضى أمس بما فيه ، وأتى اليوم بما يقتضيه : معاشر المسلمين : نحن الأئمة وانتم الأمة ، من شهد الشهادتين ، ولا يحل عرّة بين اثنين ، تجمعهما هذه الأخوة ، عصم الله بها من عصم ، وحرم بها ما حرم ، من كان مُحْرَم من دم ومال ومنكح ، الصلاح والإصلاح بين الناس أصلح ، والفساد والإفساد من العباد يستقبح ، يطوي ما كان فيما مضى فلا ينتشر ويعرض عما انقضى فلا يذكر ، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت من الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين سلام الله عليكم

١- نفسه ٢١٠ .

٢- المقرئزي : خطط ٣٤١/٢ .

٣- محمد عبد الله عنان : السابق ص ٧٦ ، ص ٧٧ .

أجمعين ، مهديهم بالله وقائمة بأمر الله ، ومنصور بالله ومعزهم لدين الله ، وهو إذ ذاك بالمهدية والمنصورية وأحوال القيروان تجري فيها ظاهرة غير خفية ، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض فيهم أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون صلاة الخميس للدين بها جاءهم فيها يصلون وصلاة الضحى وصلاة الترويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون ، يخمس في التكبير على الجنائز الخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون ، يؤذن بحي على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها يؤذنون لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف من فيهم بما يوصف ، والخالف فيهم بما خلف ، لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه ميعاده عند كتابه وعليه حسابه ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم لا يستعلي مسلم على مسلم بما اعتقده ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله هذا وبعده قوله تعالى ^(١) ﴿يَنبَأُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ^(٢) .

والمطلع على هذه الوثيقة يرى أنها تؤيد ما ذهب إليه المؤرخون من أن السياسة الفاطمية كانت تذهب إلى سب السلف والمخالفة في بعض أحكام الدين ، كما شفت عن ربح العصور وبيّنت طبيعة النزاع الذي كان بين الشيعة والسنة ، وكشفت عن الصراعات الدينية والخلافات المذهبية التي تقاسمت - بدورها - أجزاء الدولة الإسلامية وأججت في معظمها نيران الفتنة والقلق وكان ثمة ارتباط وثيق بين تلك الأحداث الدينية وبين التيارات السياسية التي اكتنفت هذا العصر .

١ - راجع ابن خلدون ٦٠/٤ و المقرئبي : الخطط ٧١/٤
٢ - سورة المائدة آية ١٠٥ .

والملاحظ على سياسة الحاكم الدينية المتقلبة تجاه فريقين اليهود والنصارى من ناحية وأهل السنة وباقي الجمهور من ناحية أخرى - قد أتاحت لأهل السنة ومنهم الحوفا على أن يشقوا طريقهم دون الخوف من بطش الشيعة أو بطش الحاكم الذي عاد في آخر أيامه إلى سياسة التوفيق بين الفريقين .

الحالة الثقافية في عصره :

انتشرت الثقافة الإسلامية في هذا العصر انتشارا يدعو إلى الإعجاب ، بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية ، وتُضج ملكات المسلمين في البحث والتأليف وتشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء لرجال العلم والأدب^(١) ، فقد قام للعلم دولة وللثقافة والأدب سلاطين ، حيث أقبل الملوك والأمراء والسلاطين والوزراء على أساطين العلم والفلسفة والأدب والشعر وتنافسوا في ضمهم إليهم واجتذابهم إلى بلاطهم وأغدقوا عليهم العطايا تشجيعا لهم على الإنتاج والإبداع معتبرين ذلك مجدا ثانيا لا يقل على المجد السياسي ، ومظهرا راقيا من مظاهر السلطان فازدهرت الحياة العلمية وبتقت فروعها وأورقت أغصانها وأنت أكلها من العديد في مدن المملكة الإسلامية ، كما ساعد قيام كثير من الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية على نشاط الحركة الفكرية ، ورواج الثقافة^(٢) .

فلم تعد بغداد وحدها مركز الإشعاع العلمي والثقافي بل تجاوزت إصدار الحركة العلمية في كثير من الدول الناشئة ، كما أتاحت الموقع للمصريين أن يتلقوا الثقافات المختلفة و بذوقهم ينتخبون ما يتلاءم و مزجهم وما تسيغه عقولهم وكان لهم من لطف الإشارة وحب التأخي ، والخبرة بفنون الضيافة مما جعلهم يرحبون بكل ثقافة وافدة يتخيرين منها ما يسيغون ثم يعكفون بدورهم ما تجمع لديهم من تراث هو من نتائج البيئات

١ - د. حسن إبراهيم حسن : السابق ص ٤٢١ .

٢ - د. حسن إبراهيم حسن : نفسه ص ٤٢١ .

المجاورة ، ولكنه غرس في أرض مصر فتغذى بلبانها واتخذ طابعها فقد كان على المصريين – وقد وفدت عليهم ثقافات و معارف – أن يتلقوا أولا هذه المعارف يثقفونها ويديرونها ففكرهم في فهمها ثم ينتخبون منها ما يسيغونه ويهضمونه ويلفظون ما لا يستطيعون تمثله ثم يضيفون بعد إلى ذلك الزد الثقافي محصول فكرهم وجني عقولهم .

و آلة ذلك كله هو هذا الذوق الذي صقله الموقع الجغرافي و أكسبه المران والخبرة متلقياً المعرفة وهاضماً لها و متخيراً منها ثم مضيفاً إليها و تاركاً عليها طابع سماته و خصائصه (١) .

هذه المعرفة التي جاءت نتيجة كثرة العمران و اتساع أفق الفكر الإسلامي بارتحال المسلمين في مشارق الأرض و مغاربها (٢) ، و نتيجة لنشاط الحركة العلمية الناشئة في بلاط كل من السامانيين و الغزنويين و البوهيين و الحمدانيين في الشرق ، و في بلاط الطولونيين و الإخشيديين و الفاطميين في مصر ، و في بلاط الأمويين في الأندلس (٣)

١ - د. الجويني : السابق ص ٤٠ ، ص ٤١ .

٢ - د حسن إبراهيم حسن : السابق ص ٤٢١ .

٣ - للمزيد راجع د. حسن إبراهيم حسن : نفسه ص ٤٢٢ . يقول : كانت هناك في هذا العصر عدة مراكز للثقافة جذب إليها رجال الأدب منها :

١ . أصهبان أو الري حيث أقام بوجه عام الصاحب إسماعيل بن عباد الذي تقلد الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن

الدولة بعد أبي الفتح بن العميد ، و كان بلاط بني بويه هناك يؤمها أساطين العلماء و رجال الأدب .

٢ . البلاط الساماني في بخارى حيث كانت مكتبة نوح بن نصر الساماني كما يقول بن خلكان – عديمة المثل –

فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس و غيرها مما لا يوجد في سواها و لاسم باسمه فضل عن

معرفة " و للمزيد راجع بن خلكان : الوفيات ج ١ ص ١٥٢ ، ص ١٥٣ " .

٣ . بلاط شمس المعالي قانوس بن وشمكير في طبرستان الغربية من بحر قزوين و قد وصفه الثعالبي فقال : " خاتم

الملوك و غرة الزمان ينبوع العدل و الإحسان و من جمع الله له إلى غرة الملك بسطة العلم ، و إلى فضل

الحكمة نفاذ الحكم . للمزيد راجع الثعالبي : " يتيمة الدهر ج ٤ ص ٥٦ " .

٤ . بلاط السلطان محمود الغزنوي في غزنة : و قد تمتع بشهرة واسعة فنقل كثير من المؤلفات إلى غزنة ، و

كان من أحسن السلاطين ميلاً إلى الأدب ، على الرغم من إساءته لرجاله - و يعتبر عهده عهد الفتوحات و

الأمجاد السياسية و العلمية و له في سجل التاريخ الإسلامي مكانة ساحقة لما أحرزه من نجاح منقطع النظير

في الداخل و الخارج حتى قال عنه الذهبي في تاريخه : انه رأس الملوك في عصره و قد جعل من قصره

مركزاً حافلاً بالنشاط العلمي و الأدبي و مؤنلاً لأساطين العلم و الأدب : " تاريخ الخلفاء ص ٤٤٨ "

بلاط الحمدانيين في الموصل و حلب فقد كانت حضرة سيف الدولة : " مقصد الوفود و موسم الأدباء و حلبة الشعراء و

يقال : أنه لم يجتمع قط بباب أحد الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر و نجوم الدهر " . للمزيد راجع :

حسن إبراهيم : السابق ص ٤٢٤ - ابن خلكان : الوفيات ١:١٥٢ و السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٤٤٨ و الثعالبي :

يتيمة الدهر ٤:٥٦ .)

كما جاءت نتيجة لظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية وخير مثال لذلك ما نشاهده من الآثار التي خلفها المعتزلة ودعاة الإسماعيلية من العلماء والمتصوفين وغيرهم ، وكان الجدل والنقاش الذي قام بين هذه الفرق من ناحية وبينها وبين السنين من ناحية أخرى ، أثر بعيد في هذه النهضة العلمية التي يتميز بها العصر الفاطمي على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكك وانحلال وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف وهن ، ولكن قيام هذه الدول ساعد على ازدياد الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار العلم نتيجة لذلك (١) .

١- مراكز الثقافة في مصر في عهد الرولة الفاطمية :

يعد عصر الفاطميين من أزهى عصور مصر الإسلامية من الناحية العلمية والثقافية فقد بلغت الحياة العلمية في مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا في مصر أو وفدوا عليها ، وكثرة المؤفات في كل فن من فنون العلم (٢) حتى استطاعت القاهرة المعزية أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية والثقافية التي يفد إليها العلماء على أن أهم هذه المراكز في مصر كانت:

أ- القصور والمكبات :

لقد خصص الفاطميون جزءا من قصرهم للدعوة لمذهبهم ، و مكانا يلقي فيه العلماء والدعاة علوم أهل البيت ، وهي المجالس التي عرفت بمجالس الحكمة التأويلية كما اهتم الفاطميون اهتمام كبيرا بمكتبة القصر حتى عدت هذه المكتبة من مفاخر الفاطميين فقد تميزت عن جميع مكبات العالم الإسلامي في ذلك الوقت يقول المقرئزي نقلا عن

١ - د. حسن إبراهيم : السابق ص ٤٢٢ .
٢ - د. محمد كامل حسين : السابق ص ٨٩ .

ابن أبي طي بعدما ذكر استيلاء صلاح الدين الأيوبي على القصر: " ومن جملة ما باعوه خزنة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا ، ويقال : أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر ، ومن عجائبها أنها كانت تشتمل على ألف ألف وستمائة ألف كتاب (١) .

لكن هذه الكنوز العلمية من نفائس الكتب التي حافظ عليها الفاطميون في قصرهم أصابهم ما أصاب الفاطميين أنفسهم، وكان ابتداء هذه المحنة التي نُكِبَتْ بها مكتبات القصر إبان الشدة العظمى التي حلت بالبلاد أيام المستنصر بالله الفاطمي ، يقول المسيحي: و كنت بمصر في العشر الأول من محرم سنة إحدى وستين وأربع مائة فرأيت فيها خمسة وعشرين جملاً موقرة كئيباً محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي فسألت عنها فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدين بإيجاب وجبت لهما عما يستحقانه، هذا سوى ما ظفر به الجند من الكتب الجليلة المقدار المكدومة المثل في سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة التي أخذ جلودها عبيدهم برسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم ، وأحرق ورقها، تأولاً منهم أنها خرجت من قصر السلطان أعز الله أنصاره ، وأن فيها كلام المشاركة الذي يخالف مذهبهم سوى ما تلف وغرق وحمل إلى سائر الأقطار وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب فسار تلال باقية في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب (٢) .

ولعل ما أصاب كتب الحوفي عالمنا من ضياع بعضها أو ضياع أجزاء منها هو ما أصاب كتب الفاطميين فهو ابن عصره وبيئته.

١ - د . محمد كامل حسين: نفسه ص ٤٦ ، و راجع المقرئزي : الخطط ٢ / ٢٥٥ .
٢ - د . محمد كامل حسين: نفسه ص ٤٦ ، و للمزيد راجع المقرئزي : الخطط ٢ / ٢٥٤ .

قلنا إن القصر في العصر الفاطمي استخدم في نشر الدعوة الفاطمية بمحوه (١) ومكتباته وفي المحول كان يجتمع الناس لسماع المحاضرات ، وكان الجمهور يقسم إلى أقسام فكان للأولياء مجلس وللخاصة وشيوخ الدولة وخدم القصر مجلس ، ولعوام الناس مجلس وللطوائف مجلس وللنساء مجلس (٢) .

ولقد كان بجانب القصر الفاطمي ، قصر الوزير بن كلس الذي كان يشجع العلم والعلماء ، وأنه كان يجمع الاجتماعات الكبيرة في بيته في كل يوم خميس ، وكان يحضر تلك الاجتماعات القضاة والفقهاء ، وأساتذة القراءات والنحاة ، وعلماء الحديث وكبار رجال الدولة والشعراء وغيرهم ، إلى جانب النساخ الذين كلفهم بنسخ شيء من كتب الحديث والفقهاء والأدب واللغة والنحو وجعل في قصره جماعة من القراء والأئمة ، وعين لهم الرئاسات ووكّل إليهم إقامة الصلاة في المسجد الذي بناه في قصره (٣) .

و من مآثر الفاطميين التي أنشأها الحاكم بأمر الله حمل إليها الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها فجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة (٤) .

ب - المساجد :

كانت المساجد تقوم مقام المدارس والجامعات في أيامنا ومن ثم لم تقتصر المساجد على إقامة الشعائر الدينية بل كانت دور علم اتخذها الفاطميون لنشر دعوتهم الدينية وبت عقائدهم المذهبية ، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله أكثرنا من بناء

١ - المحول: هو المكان الذي خصصه الفاطميون لنشر الدعوة، و هو أشبه شيء بقاعة المحاضرات العامة في عصرنا الحديث " راجع د. محمد كامل حسين: نفسه ص ٤٦ ."
٢ - د. محمد كامل حسين: نفسه ص ٥٠ ، و المقرئبي: الخطط ٢/٢٢٦ .
٣ - د. حسن إبراهيم: السابق ص ٤٢٦ .
٤ - د. محمد كامل حسين: السابق ص ٥٠ .

المساجد ، وكان من أهمها الجامع الأزهر الذي بناه جوهر الصقلي سنة إحدى وستين و ثلاثمائة^(١) ، الذي أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورياده من كل صوب و حذب مختلف العلوم والفنون وأول من حول الجامع الأزهر إلى جامعة هو ابن كلس ، فأصبح نبراسا للجامعات الإسلامية^(٢) .

٢- علوم اللغة العربية و (الفقه التي ازوهرت في هذا العصر :

أخذ المسلمون بحظ وافر من العلوم على اختلافها ، و ميز العلماء بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم ، و العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم ، و أطلقوا على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية ، و على الثانية العلوم العقلية أو الحكيمة ، و يطلق عليها أحيانا علوم العجم ، أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة ، أو العلوم الدخيلة . و تشمل العلوم النقلية : علم التفسير ، علم القراءات و علم الحديث ، و الفقه ، و علم الكلام ، والنحو و اللغة و البيان و الأدب . و تشمل العلوم العقلية: الفلسفة، و الهندسة، و علم النجوم و الموسيقى و الطب، و السحر، و الكيمياء، و الرياضيات و التاريخ، و الجغرافية^(٣) .

ازدهرت الحركة العلمية في العلوم النقلية و العلوم العقلية معاً، و لكن الذي يهمننا هو العلوم النقلية لمنهجنا في البحث و التي سوف نعالجها بالتفصيل في أثناء الكشف عن منهج الحوفي في التفسير.

١. علم التفسير و (القراءات) و علوم القرآن :

من المعروف أن العلوم العربية و الإسلامية إنما نشأت بسبب القرآن الكريم و ما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حرفه و تفسير غريبه و معرفة أسرار إعجازه ، و تفهم

١ - د. محمد كامل حسين : نفسه ص ٥١ .

٢ - د. حسن إبراهيم : السابق ص ٤٢٨ .

٣ - د. حسن إبراهيم : نفسه ص ٤٢٨ .

معانيه^(١)، فعلم النحو و علوم اللغة لم تنشأ إلا بسبب القرآن، فلا غرر أن رأينا هذه العلوم التي كانت تجور حول دراسة القرآن موضع اهتمام المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية ومنها مصر، فقد عرفت مصر هذه العلوم منذ دخلها المسلمون و أخذت في الازدهار حتى جاء الفاطميون فأولوا هذه الدراسات عنايتهم و رعايتهم^(٢)، و اتخذوا التفسير وسيلة لنشر مبادئهم و لجأوا إلى التأويل غير المشروع، أي الذي لا يوافق العقائد الإسلامية فنراهم يفسرون قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَجَعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ بأن قوله تعالى ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ (سورة نوح: من الآية ١٠) أي أسألوهم أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني، و من قوله ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ (سورة نوح: من الآية ١١) بأن السماء هي الإمام و الماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم، و معنى ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ (سورة البقرة: من الآية ١٢) أن الأموال هي العلم و البنين هم المستجيبون، و معنى ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَجَعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (سورة نوح: من الآية ١٢) أن الجنات هي الدعوة السرية أو الباطنية، و الأنهار هي العلم الباطني، و كذلك فسروا قوله تعالى

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الحشر: الآية ١٦)

إن الشيطان هو عمر بن الخطاب و الإنسان هو أبو بكر الصديق، و معنى أكفر لا تؤمن بإمامة علي بن أبي طالب و تفسيرهم لقوله تعالى ﴿السَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُجْسَبَانِ﴾ (سورة الرحمن: الآية ٥): أن الشمس و القمر هما الحسن و الحسين، و أن إبليس و آدم المشهوران

١ - د. محمد حسن كامل: السابق ص ١٢١.

٢ - د. محمد حسن كامل: نفسه ص ١٢١.

٣ - سورة نوح آية ١٠، ١١، ١٢.

في القرآن هما أبو بكر و علي ، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي و الطاعة له فأبى و استكبر^(١).

غير أننا نرى الفاطميين الذين كانوا لا يتفقون في تفسير القرآن مع باقي المسلمين مدّعين أن للقرآن الكريم تأويلاً باطنياً يخالف ما يقول به المفسرون قد أفسحوا صدورهم لتفسير هؤلاء العلماء الذين كانوا بمصر و سمحوا لهم بالتحلق في المساجد وإلقاء دروس التفسير على طلاب العلم^(٢)

ولعل الحوفي من هؤلاء العلماء الذين أفسح الفاطميون لهم صدورهم فأنشأ تفسيره رداً على تأويلاتهم و لذلك جاء تفسيره جامعاً لكل ركن من أركان التفسير على ما ستوضحه الدراسة .

ولقد ظل القرآن منبع كثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في هذا العصر فاستعان به علماء النحو على استنباط فواعد اللغة العربية كما اعتمد الفقهاء في أحكامهم الفقهية على القرآن و ألفوا كتباً كثيرة أسموها " أحكام القرآن " ، واستعانت الفرق الإسلامية بكتاب الله و اتخذوه أساساً للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه^(٣) .

٢. اللغة و النحو :

لم تكن هذه الدراسات العربية جديدة على النحو، فقد نبغ في اللغة والنحو قبيل الفتح الفاطمي أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس النحوي المصري^(٤) ، رحل إلى العراق و أخذ النحو عن أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش و أبي إسحاق الزجاج و غيرهما و نبغ في العصر الفاطمي أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني و كان لغوياً نحويّاً^(٥)

١ - د. حسن إبراهيم: السابق ص ٤٢٥.

٢ - د. محمد حسن كامل: السابق ص ١٢٣.

٣ - د. حسن إبراهيم: السابق ص ٤٢٧.

٤ - للمزيد في ترجمته : راجع شيوخ الحوفي في الفصل القادم .

٥ - د. حسن إبراهيم: السابق ص ٤٣٧.

كما اشتهر أبو طاهر النحوي وكان يتولى ديوان الشام في عهد الخليفة الحاكم^(١) وكان أبو الفضل جعفر لغويا نحويا لقبه الحاكم بعالم العلماء، وجعله يجلس في دار العلم يقوم بتدريس اللغة والنحو، ومن علماء هذا العصر عالمنا أبو الحسن علي بن إبراهيم الحوفي النحوي المصري من أهل الحوف الذي نحن بصدد دراسة منهجه في التفسير، أخذ العلم عن أبي بكر الإدفوي^(٢)، كما أخذ العلم عن جماعة من علماء المغرب، وعلى ما سوف تكشفه الدراسة أن الحوفي لم ينفصل عن عصره، بل عاش عصره العلمي مستغرقا في خضمه، متأثراً به ومؤثراً فيه.

١ - د. حسن إبراهيم: نفسه ص ٤٣٧ .
٢ - راجع ترجمته المفصلة في الفصل القادم .